

الفكر النقدي بين النظرية والتاريخ

- هناك عاملان ساعدا أوروبا على الوصول بفكرهم النقدي إلى ما وصل إليه من مراجعة القيم المؤسسة لمجتمعاتهم منذ عصر الأنوار ، حتى وصلوا إلى تفكيك المركزية الغربية ضمن خطابات ما بعد الحداثة والتي من أهم نظرياتها نظرية ما بعد الاستعمار، والعاملان يتعلق أحدهما بالجانب الاستعماري المعرفي والآخر بالجانب التاريخي الاجتماعي والسياسي .

- وإذا كان الأول انطلق مع كانط في تأسيسه للحظة النقدية وما تبعه من تأسيس على يد بقية الفلاسفة وصولا عند ماركس ، فإن العامل الآخر يتعلق بالحربين العالميتين ، فالحدثين من الأهمية الكبيرة الذي نزل كالصاعقة على المجتمع الأوروبي ، لم يمهل الأوروبيين ليستمتعوا بمعالم الحضارة التي بدأت تنعكس على مجتمعاتهم ، ولولا - وهنا أشير إلى أهمية العامل الأول- أن هناك أرضية من التفكير النقدي الذي سبق هذين الحدثين قرابة القرنين ، وهو تفكير تراكت مفاهيمه وأفكاره وفلاسفته في المسارات المتشعبة للمعرفة ، ولولا هذه الأرضية الصلبة واليقينة للفكر لذهب المجتمع الأوروبي كله ضحية هذين الحدثين دون أن تقوم له قائمة مرة أخرى من هول الحرب التي خاضها ، لكن رغم ذلك أصابته لعنة الأمراض النفسية لكنه سرعان ما عالجها بالفكر النقدي من جهة وبالأدب والإبداع من جهة أخرى .

وهكذا استطاع أن يعود إلى مسار الحضارة ويعمل على مساره التاريخي لحظة دخوله الحداثة.

- التطور اللاحق للفكر النقدي الغربي أعاد إلى الأذهان مرحلة الاستعمار الأوروبي ، بعدما انقضت فترتها التاريخية لتقدم نظرية ما بعد الاستعمار كشفا عن آلية السيطرة والتحكم التي مارسها المستعمر الحاكم من خلال آدابه وعلومه الإنسانية على الشعوب الخاضعة له .

- لكن الملفت للنظر أن جل مؤسسي هذه النظرية هم من البلدان التي كانت خاضعة للمستعمر نفسه بداية عند أدوارد سعيد وليس نهاية عند إعجاز أحمد وغياتري سبيفاك، وهنا يأتي السؤال الملتبس الذي يفتح الباب واسعاً على سوء التأويل لدى المتلقي للثقافة الغربية: هل ثمة في الأمر صدفة أن يتصدى فلاسفة ومفكرون من البلدان التي استعمرها الغرب كي يكشفوا عن الهيمنة الفكرية والأدبية على مجتمعاتهم بعدما انقضت مرحلة الاستعمار الجغرافي؟ أليس ثمة دوافع خفية وعميقة لا واعية للانتقام ولو عن طريق الفكر؟.. للوهلة الأولى السؤال قد يكون مشروعاً وإجابته تكمن في المسار التاريخي للنظرية وعلاقة تأسيسها بحياة مفكرها وظروف نشأتهم ، وهذا المسار في البحث يثري النظرية على العموم .

- لكن اللتباس أين يقع؟ لا يقع عند الباحثين المشتغلين بالنظرية ذاتها، لكنه يقع عند المتلقين لمقولاتها ونتائجها المتأثرين بمفاهيمها وأفكارها .

دعوني أوضح ما أقصده على النحو التالي : الصورة النمطية عن فكرة الهيمنة والسيطرة التي ركبها

نظرية ما بعد الاستعمار عن الغرب تعطي انطبعا عند الكثيرين الذين يعيشون في بلدانهم بعيدا عن مركز الحضارة من مختلف الشعوب أن هذه الصورة النمطية من القوة والحضور لا زالت تعمل عملها بحيث أن فكرة المؤامرة باعتبارها فكرة تعكس هذه القوة تسري في العقول مثل النار فيالهشيم ، وبالتالي كل ما يصدر من الغرب سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الديني يؤول على أنه ينتمي إلى مؤامرة كبرى، لكن عند هذه النقطة بالذات لا يجب أن نغفل الحقائق المتصلة بالتطور الذي أوصل نظرية ما بعد الاستعمار إلى ما أوصلها إليه ، فميشيل فوكو المفكر والمؤرخ الفرنسي هو أحد المؤسسين لمفاهيم هذه النظرية على يد إدوارد سعيد ، بالإضافة إلى فرانز فانون ولا ننسى مفاهيم جاك دريدا ..ألخ .

- بالتالي الصورة النمطية التي كونتها النظرية عن الغرب شارك في صناعتها الفكر النقدي الغربي ، وهذا يكفي للقول أن المفاهيم والمقولات للنظرية لا تحمل القيمة المطلقة للصورة المتشكلة عن المجتمعات لأنه بكل بساطة لا توجد قيمة مطلقة للحكم على أي صورة تتشكل عن المرء أو المجتمع .